المحاضرة السادسة: التاريخ والحتمية

طبيعة الحتمية ونشأتها

إن الحتمية كما وضحها إيزبا برلين Isaiah Berlin 1909–1997 منظر اجتماعي سياسي وفيلسوف ومؤرخ أفكار روسي–بريطاني. تكمن في وجود روابط وصلات تربطنا بمؤشرات لا يمكن التحكم فيها أو السيطرة عليها. وتعني في نفس الوقت التوجه نحو هدف ثابت لا يتغير، إنها ليست إلا عملية منظمة من النهوظ والسقوط وهذا أمر واقع عند الذين يعتقدون بأن الكون يتبع فقط القوانين الطبيعية.

أشكال الحتمية التاريخية

وتتخذ الحتمية كما يذكر إيزبا صورا مختلفة في التاريخ فهناك الحتمية العلمية وهناك الحتمية الخاضعة للنظرة الانسانية والمتفائلة للمؤرخ أو لنظرة المؤرخ المتمرد التي تتوقع نهاية العالم ودماره، وكل هذه الانواع تتصور أن الأحداث التاريخية تسلك طريقا ما وتخظع لقوانين وبإمكاننا اكتشاف هذه القوانين.

وللإشارة هنا في إطار البحث عن فكرة الحتمية التاريخية أن نذكر ابن خلدون فهو أول من وضع أسس نظرية متكاملة في التاريخ تختلف أتم الاختلاف عن التصور الدائري للتاريخ عند اليونان، وهو التصور الذي رفضه أغسطين وأكد على فردية الحادثة التاريخية. يرمي ابن خلدون من وراء دراسته الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال. وخلاصة القول أن الحتمية التاريخية عند القائلين بدائرية التاريخ تتمثل في وجود خطوط رئيسية تربطها بمؤثرات لا يمكن الهيمنة عليها.

أما فيكو في القرن 18 فقد اعتقد أن جميع الامم تمر بثلاث مراحل سياسية، عصر الالهة أو الثيوقراطية عصر الأبطال أو الارستقراطية عصر البشر أو المساواة. في هذه النظرة العضوية للتاريخ تكمن الحتمية.

يؤمن جورج فيلهلم هيجل بمطلق أسماه "روح العالم"، جوهره الحرية. وخلال سعي هذه الروح إلى الوعي بذاته، أي الحرية، قاد التاريخ عبر مراحل ثلاث من الوعي بالحرية، أولها الحضارات الشرقية القديمة، ثم حضارة اليونان والرومان، ثم الأمم الجرمانية.

ودرس توينبي التاريخ فوجد أن الحضارات تمر بعملية دورية على أساس التحدي والاستجابة. فكيندي شأنه شأن ابن خلدون وأغسطين وفيكو، وتوينبي وغيرهم سعى إلى البحث عن إطارات أوسياقات أو نماذج منتظمة ومتماثلة في مجرى التاريخ وحاول إخضاعها لمبدأ عام يفسرها ويتحكم فيها.

وخلاصة القول أن الحتمية التاريخية عند القائلين بدائرية التاريخ تتمثل في وجود خطوط رئيسية تربطها بمؤثرات لا يمكن الهيمنة عليها.

أما بالنسبة لكارل ماركس ونظرته للحتمية التاريخية فإن فكرة أن التاريخ يتبع مساراً محدداً مسبقاً، مدفوعاً بالقوى الاقتصادية والصراع الطبقي، هي عقيدة أساسية في الفكر الماركسي. ومن خلال الحتمية التاريخية يعتقد ماركس أن التاريخ يتقدم من خلال المادية الجدلية، حيث تؤدي التناقضات والصراعات داخل المجتمع إلى التغيير. وأن هذه النظرة المادية تأكد على دور العوامل الإقتصادية في تشكيل الأحداث التاريخية فنظرية "كارل ماركس" عن المادية التاريخية أشهر مثال على الحتمية التاريخية في الفلسفة.

يتحدد مسار التاريخ البشري من خلال الهياكل الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع، وقد جادل بأن الصراع بين الطبقة الحاكمة والطبقة العاملة يمثل القوة الدافعة الأساسية وراء التغيير التاريخي. وعلى وفق منطلق الحتمية التاريخية المادية، يسير التاريخ في حركة ديالكتيكية من البسيط إلى المعقد ومن الأدنى إلى الأعلى ومن الاقتصاد إلى الفكر، وان البنية التحتية هي التي تحدد بنيتها الفوقية، والبنية التحتية هي القوى المنتجة والبنية الفوقية هي العلاقات الاجتماعية والنظام الأيديولوجي

إلى جانب ما سبق، توجد مجموعة أخرى من الحتميات المتنوعة مثل "حتمية لغوية" Linguistic Determinism، تجعل للغة دورا رئيسيا في تحديد وتشكيل نمط التفكير وتصور العالم، والعمليات الذهنية أيضا، عبر المفردات والنظام النحوي والدلالات وسائر التفاصيل. وما بين حين وآخر، تظهر حتمية تاريخية جديدة، تنبؤية غالبًا، على منوال نظرية نهاية التاريخ للأمريكي "فرانسيس فوكوياما" الذي بشر بهيمنة الديمقراطية الليبرالية الغربية على جميع المجتمعات، باعتبارها قمة ومنتهى الفكر السياسي البشري.